اللاهوت والعلم الطبيعي

الخرطوميات

Proboscidea

تاريخ نشوئها وتحولها وهجرتها في القارات العظمى

دليل يدحض مذهب الخلق المستقل ويثبت مذهب النشوء

لما نشر العلامة ، داروين ، كتابه ، أصل الانواع ، قامت في وجهه عاصفة من الاحتجاج اللاهوتي أثارها رجال الكنيسة ، على شطريها كاثوليك وبروتستانت ، وأخذ رجال الكنيستين يرمون الجهبذ الكبير بكل ماصورتخلم أوهامهم من التهم ، وينعتونه باخس ماعرف في معاجم اللغة من صفات السقوط والاسفاف . ذلك لأن مثل كتاب داروين أزاء عالم اللاهوت ، كان كمثل محراث صادف قرية من قرى النمل في أرض مرملة . فكنت ترى في كل مكان أولئك الذين صحوا من نومهم الهادىء العميق ، قد تهافتوا جماعات أخذها الغضب ، وفعل بها الاضطراب . فالمجلات والمواعظ الدينية ، والكتب كبيرة وصغيرة ، أخذت تنهال على المفكر الجديد من كل جانب انهيالا وتترامى عليه ترامياً .

أما رحى اللاهوت فقد حملها توأ ومن غير توان مستر « وليبرفورس » اسقف اكسفورد وظهر بها على صفحات مجلة الكوارترلي . فقد أعلن أن « داروين » قد أجرم أشنع جرم بأن « حاول أن يحدد مجد الله في فعل الخلق » . وأن « مبدأ الانتخاب الطبيعي لاينفق بحال من الأحوال مع كلمة الله » — وأنه يناقض « العلاقات المنزلة التي ربطت بين الخلق وخالقه » . وأن هذه النظرية « لاتتفق وما يقتضيه كمال المجد الآلهي ، وأنها نظريه في الطبيعة تحقر القائل بها » . وأن هنالك تعليلا أبسط وأكثر بداهة يمكن أن يعلل به وجود تلك الصور العضوية الغريبة القائمة بين أعمال الله » . أما ذلك التعليل فينحصر في « هبوط آدم » .

ولم تقف جهود الاسقف الكبير عند هذا الحد . ففي اجتماع الجمعية البريطانية

---

(١) اعتمدنا في بعض تقريرات من هذا المقال على فقرات من كتاب بين الدين والعلم الذي نشرناه حديثاً ويطلب من دار العصور لطبع والنشر .

لتقدم العلوم سنة ١٨٦٠ بجامعة اكسفورد ، ج الاسقف بنفسه بين الخطباء ، فافتتح الخطاب بمهاجمة « داروين » وتسفيه آرائه ، ثم عقب عليه بستر « هكسلى » المشرح المعروف فقال الاسقف فى سياق كلامه :

« وانى لأشعر بقوة تدفعنى لأسأل مستر « هكسلى » وهو جالس بجانبي يكاد يقطعنى إربا إذا مااستويت بجانبه ، أن يبين معتقده فيما إذا كان يمت بروابط النسب إلى القردة . وهل جده أم جدته هى التى تمت بحبل النسب اليها »

فلما وقف مستر هكسلى ليؤيد المذهب قال فى عرض خطابه :

« لقد قلت فيما سبق وأعيد على مسامعكم قولى ، إنه لا يحق لانسان أن يخجل من أن يكون جده من القردة . واذ وجد من أسلافى من يتولانى الخجل اذا نسبت اليه ، فانسان ضعيف العقل ، لم يقنع بما حازه من نجاح غير ذى قيمة فيما هو آخذ به من العمل فى الحياة ، فقذف بنفسه فى غمار مباحث ليس له بها من علم ، وأورى زناد فكره ليعمى عليها بقوة من الخطابة غير محدودة المقاصد والغايات ليسترعى انتباه سامعيه الى حيث يحرفهم سبل الحيرة والارتباك ، ويبعدهم عن حقائق العلم بصلفه واجحافه ، ويلجأ فى ذلك الى مقولات لاهوتية حشوها التغرض والاعتساف »

ولقد دوت هذه القذيفة فى أنحاء انجلترا دوياً تناقلته عنها أجواء البلاد الاخرى .

على أن أقوال « ولبرفورس » وكان معدوداً من أنبه رعاة الكنيسة الانغليكانية قد تلقتها الكنيسة الكاثوليكية الانجليزية ، وجاوبت عليها بصوت آخر . ففى خطاب ألقاه الكردينال « مانتج » Manning أمام أعضاء « الاكاديميا » - Academia - وكانت قد تكونت لمحاربة ما « يدعى العلم » هوجم المذهب الطبيعى الجديد ورمى بالتجديف ، ووصف بأنه « فلسفة وحشية » إذ تقضى عقلا بأن « لا إله » وان القرد هو « أبونا آدم »

ان هذه الهجمات التى قامت بها مصادر اشتهرت فى عالم اللاهوت ونبه صيتها فى جو الكنيسة ، قد صبغت الفكر الكهنوتى بصبغة ما يضع سنين . فقد ذهب كاتب كهنوتى معروف على الرغم من السنوات الثلاثين التى أنفقها « داروين » فى عمله الهادى المستمر ، وعلى الرغم من تلخيص ذلك الكاتب أصل الانواع تلخيصاً بلغ منتهى القوة والمتانة ، الى القول فى احدى مجادلاته : « لكان أجدر بداروين أن

يكون أكثر نهى بأن يزودنا ببعض الاسباب الاولية التى تحملنا على نبذ المذهب الذى يعتنقه الجميع » .

ولديك لاهوتى آخر مشهور وكان نائباً لرئيس معهد أسس « لمحاربة العلوم » المضرة أو « الخطرة » ، قد أعلن ان مذهب داروين « محاولة يقصد بها انزال الله عن عرشه » . وذكر ناقد آخر أولئك الذين تقبلوا مذهب داروين وآمنوا بصحته « بأنهم كمثل الذين وقعوا تحت تأثير وحى جنونى أوحى اليهم به من استشم غازاً و باثياً كريهاً » ، كما قال فى براهين « داروين » انها : « غابة ملتفة فى فروض خيالية » . وتكلم آخر عن مذهب داروين فقال بأنه « يفرض ان الله « قد مات » » ، وأعلن ان مؤلفات « داروين » انما : « تفتح باب الاضطراب فى كل شىء من الاشياء التى أظهرها لنا الله فى كتبه المقدسة عن وسائلها ونتائجها فى عمله . وقال ثقة آخر من رجال اللاهوت بأنه : « اذا كان مذهب داروين صحيحاً ، إذاً فسفر التكوين كذب . وبه ينهدم ذلك الهيكل العظيم الذى نستقرىء آياته فى كتاب الحياة و يتحطم تحطيما ، و يصبح وحى الله للانسان ، كما نعرفه نحن أبناء النصرانية ، عبارة عن سخرية وخيال » وقال آخر : « من أظهر صفات أهلت به لأن يكون من مستقرئى أسرار الطبيعة ، بأن « المذهب الداروينى » دعوى باطلة من أولها » .

وفى جو امريكا ترددت الاصداء . فقد قالت مجلة من أكبر مجلات الفئات الدينية انتشاراً فى امريكا — إن داروين « يحاول أن يزيد الاشكال ظلاماً على ظلامه » ورفضت أخرى فكرات داروين باعتبار أنها « خيانة » وعدم « أمانة » . وأعلنت المجلة التى تمثل فرع الكنيسة الانغليكانية بعد أن أوسعت « داروين » تسفيهاً وتحقيراً ، أن مذهبه — « سفسطة و بعد عن المنطق » ، ومن ثم زلقت بقدمها فى مناقشة خطرة قالت فيها — إذا صحت هذه النظرية الفرضية فهل تكون الاناجيل خيالا لا يمكن تصديقه ؟ وهل ظل النصارى أكثر من الفى سنة غارقين فى لجات يم عميق من الكذب الفاضح ؟ ، ان داروين يريدنا أن نكذب كلمة الخالق الأولى ، وحاولت جريدة أخرى تابعة لهذا الفرع من أفرع الكنيسة أن تثبت نظرية النشوء مناقضة للنصوص الصريحة التى أعلنت فى العهد الجديد ، كما أنها تناقض نصوص العهد القديم ، ثم قالت : إذا كنا جميعاً أناسى وقرودا ، اصدقاءً وزواة ، قد نشأنا من جرثومة أصلية واحدة فهل يمكن أن يكون تصريح القديس بولس العظيم من أن

الاجسام مختلفة، وان أجسام الآدميين نوع غير أجسام البهائم والوحوش — وهذين غير أجسام الاسماك والطيور ، غير صحيح ؟

وارتفع صدى آخر من أوستراليا . حيث نشر الدكتور « بري Dr. Perry كبير أساقفة ملبورن كتاباً هو أشد الكتب مضاضة وأكثرها مرارة ، عنوانه « العلم والانجيل » أعلن فيه أن الغرض الاول الذى يرمى اليه شامبرس وداروين وهكسلى هو أن يزرعوا فى قرائهم بفرة انكار الانجيل وعدم الاعتراف به » .

وعلى هذا النسق سار اللاهوتيون فى أنحاء الدنيا المتمدينة فى فرنسا والمانيا وامريكا وايطاليا واسبانيا . ولقد مضى الجميع يقولون بأن المذهب الداروينى لن يثبت إلا اذا ظهرت الحلقات التى تربط بين الانواع . وكان فى أمريكا دكتور لاهوتى يدعى دكتور « بر » Burr قيل بأنه استطاع أن ينقض المذهب التشوئى (ويرمى به الى الكلاب) وبينما كان هذا الدكتور يحوط بهالة من المديح والثناء كان الاستاذ (مارش) فى جامعة (يال) يتم سلسلة الحلقات التى تظهر صلة النسب بين الحصان وبين حيوان من ذوات الاظلاف ذى خمسة أصابع . وفى الوقت الذى كان فيه دكتور (تيلور) فى (يونيون) ودكتور هودج ودكتور دوفيلد فى برنستون دائبين على اظهار أن التشوء اذا صح انتفت النصوص المقدسة كان أستاذ جامعة (يال) دائباً مجـــدا فى اظهار آثار الصور (الكرستاسيه) ومن بينها الاسبيرورنس Hesperorins والاختيورنيس Ichtyornis ذوى الاسنان المنشارية . وبينما كان (لونهارد) و (شاند) وانصارهما من أهل اللاهوت فى المانيا يقولون بأن الكتب المقدسة تتطلب اعتقاداً ثابتاً فى صحة الخلق الذاتى المستقل ، استكشفت آثار طير الارخيوبترى) Archeopetryx التى أظهرت بجلاء العلاقة الكائنة بين الزواحف والطيور . وبينما انصرف مسيو (سيغور) Segur وأنصاره فى فرنسا الى حملات جدلية يوجهونها الى شخص يدعى (داروين) كان الاستاذان جودرى وفيلوز مجدين فى استكشاف عدة (حلقات) مفقودة تربط بين الحيوانات المفترسة .

***

وللعلامة المعروف « هنرى فيرفيلد أوزبورن » الامريكى مؤلف كتاب من « الاغريق إلى داروين » ابحاث طريفة فى أصل الفيلة الحالية وكيفية نشوئها وهجرتها التى هاجرتها منذ بدء العصر الميوسينى ، وهو أحد الاقسام التى يقسم بها الزمان الثلاثى Tertiary Period فى علم الجيولوجيا . والعلامة « أوزبورن » فضلا عن أنه

من كبار الزولوجيين - علماء الحيوان - يعتبر من كبار البالنتولوجيين . الباحثين فى الحفريات ، أى الآثار العضوية القديمة التى طمرت واستحجرت فى باطن الأرض

ولقد استكشف هذا العلامة فى سنة ١٩٠٣ فى أقليم الفيوم بمصر بقايا ثلاثة أفراد من سلالة « الموريثيريوم » - Moeritherium . وكثيراً من بقايا « الفيوميا Phiomia » . وكان كثير العدد ، وقليلا من بقايا « الماستودون الحفرى » Palaeomastodon وكان نادر الوجود ، وهو الذى يرجح أن يكون الأصل الذى نشأ عنه الماستودون الامريكى

وكان لاستكشافه هذا أثر حمله على أن يتابع أبحاثه فى البروبوسيديا — Proboscidee أى الخرطوميات . فتتبع آثارها منذ كانت فى مآكلها الاصلية فى افريقية « وايراسيا » Eurasia — إلى مهاجرها الجديدة فى أمريكا . حتى قال بأن نزعة شديدة الى الهجرة والتنقل قد تمكنت من الخرطوميات فى العصور الاولى شبيهة بنزعة التطواف التى ملكت زمام الجماعات البشرية فى العصور القديمة . والى هذه النزعة يعزوا العلامة « أوزبورن » السبب فى نشوء تلك الصور الشتى التى تمتاز بها أسرة الخرطوميات .

ولقد قسم « أوزبورن » الخرطوميات إلى أسرتين تحتويان على ست عشرة سلالة . وذكر أن ستة منها قد قعدت بها الظروف عن أن تصل أمريكا . أما هذه فهى المعروفة بالارقام ١ و ٢ و ٤ و ١١ و ١٢ و ١٦ . ويقول بأن تعيين الوقت الذى هاجرت فيه العشر صور الاخرى ، لا يمكن تحديده تماماً . غير أنه يذكر أنها فى هجرتها إلى امريكا قد سلكت طريق بوغاز بيرنج ، وكان فى زمان هجرتها برزخا وأرضاً يبساً .

ولننتقل إلى تقسيم الخرطومية . فقد قسمها « أوزبورن » إلى أسرتين : الأولى الماستودونيه Mastodontidae والثانية الالفانتية Elephantidae أى الفيلية

والاسرة الأولى تحتوى على عشر سلالات : هى —

١ — الموريثيريات - Moeritheres - وقد أخذ اسمها من بحيرة « موارس » Moeris المعروفة عند اليونان القدماء ، وهى بركة قارون والمعروفة عندنا فى أقليم الفيوم . والموريثيريات فصيلة من أسرة الماستودون أعفيته العادات — أى تأهل البر والبحر - تطئت أنهار إفريقية الشمالية وبحيراتها .

٢ — الدينوثيريات — Dinotheres — وهى سلالة من الخرطوميات كان منها أنواع كبيرة الأحجام مروعة المنظر . عاشت فى اوربا وآسيا فى العصر الميوسينى Miocene وأوائل العصر البليوسينى — Pliocene

٣ ــ الماستودون الحقيقى ــ وقد تفصلت هذه السلالة عن الماستودون المنقرض، البالیوماستودون Palaeomastodon أو الحفرى، الذى عاش فى العصر الاوليغوسينى Oligocene ــ فى مصر. وقد عثر على بقاياه فى بقاع متفرقة من الرواسب الخشبية ــ الفحم الحجرى ــ فى اوربا. وقد ظهر أولا فى امريكا فى أواخر العصر الميوسينى. وقد تدرج فى الضخامة فكان فى أواخر العصر الجليدى ــ Giacial الماستودون العملاق Gaint Mastodon الذى أهلت به غابات امريكا

٤ ــ الماستودون المتصل الاسنان أو الزيجولوفودنت Zygolophodont ظهر أولا فى العصر الميوسينى فى أوربا. ونشأ منه ماستودون بورسون Borson Mastodon الذى عاش فى الغابات التى كست اوربا وآسيا فى نهاية العصر البليوسينى وهو قريب الآصرة جدا بالماستودون الحقيقى.

٥ ــ الماستودون الطويل الفك أو اللونغيروسترين Lngirostrines وقد تسلسل عن «الفيوميا» Phiomia الطويل الفك الذى عاش فى مصر خلال العصر الاوليغوسينى. ثم تطور تدرجاً حتى صار الحيوان الذى يطلق عليه اسم «التريلوفودون» Tirlophodon الذى عاش فى اوربا. وهاجر مخترقا أوربا وآسيا فى العصر البليوسينى وانتشر فى نبراسكا وكنساس وجنوب داكوتا والكولورادو فى العصر البليوسينى

٦ ــ التترالفودون ــ Tetralphodon ــ وفى الاسم اشارة إلى رؤوس أو بروزات تكونت على حافة الاضراس الأمامية. وعثر عليه أولا فى أوائل العصر البليوسينى فى إيلشيم بالمانيا وفى يكرمى ببلاد اليونان. وهاجر مخترقا بلاد الهند ودخل امريكا أواخر العصر البليوسينى عندما كان العصر الجليدى على وشك الابتداء

٧ ــ السيريدنتين ــ Serridentines ــ وفى هذا الاسم إشارة إلى الاسنان المنشاريات التى تكون فى مؤخر أضراسه من الداخل والخارج. وأفكاكه متوسطة الحجم. وعثر عليه أولا فى رواسب الغابات الأوروبية خلال العصر الميوسينى. وهاجر إلى أقاليم امريكا الجنوبية وتكساس وفلوريدا وعاش هنالك حتى أواخر العصر البليوسينى.

٨ ــ الماستودون المنقارى الفك أو الرينكوروسترين Rhynerostrines ويمتاز على الصور الاخرى بانحناء انيابه انحناء كبيراً إلى الاسفل بما يشابه الدينوثيريات Dinotheres ولم يعرف أصله فى أوربا. واستكشفت آثاره فى كولورادو وكاليفورنيا وأمكن العثور عليها فى بلاد المكسيك.

٩ ــ النوتوروسترين Notorostrines ومعناه ماستودون الجنوب، لأن هذه

الحيوانات وجدت عادة فى كاليفورنيا وجنوب امريكا وكانت قصيرة الافكاك كالما ستودون الحقيقى تماماً .

١٠ ـ الماستودون القصير الفك Brevirostrines ـ أول ما عرف من أنواعه الماستودن المستقيم الانياب فى أوفرنى بفرنسا فى العصر البليوسينى . وهاجرت أنواعه الى الهند ومضت فى الهجرة حتى بلغت غربى نبراسكا فى أواسط العصر البليوسينى . وعاش فى إقليم أمريكا الجنوبية حتى أوائل العصر الجليدى

وأما الاسرة الثانية أى الالفانتية أو الفيلية . فتتكون من ست سلاسلات : وهى

١١ ــ الاستيجودونت Stegodont أكثر قدما من الفيلة . وتتبع الباحثون آثار هذا الحيوان فى العصر الميوسينى فى أوروبا إلى غابات الهند . وجزائر الهند الشرقية وبلاد الصين

١٢ ــ اللوكسودونت Loxodonts الفيل الافريقى . وتمتاز هذه السلالة بأضراسها الشبيهة بشكل المعين الهندسى . ومن هذه الفصيلة صور ذات ضخامة وعظم فى الهامة قطنت جنوب أوروبا والهند ثم أخذت تتضاءل تدرجاً وشيئاً فشيئاً حتى كان منها تلك الانواع الصغيرة التى قطنت جزائر البحر الابيض المتوسط

١٣ ــ الارشيدسكودون ــ Aarchidiskodon ــ أو عموث الجنوب . عرف أولا فى بلاد الهند . ثم هاجر غرباً إلى جنوب أوربا . وشرقاً من طريق برزخ بيرنج إلى أمريكا حيث وصل فى اوائل العصر الجليدى وهنالك تنسل عنه العموث الاكبر ــ Imperial Mammoth

١٤ ــ الباريليفوس Parelephos أى عموث المنطقة المعتدلة ويعتبر صورة تكميلية للفيلة الحقيقية . عرف أولا فى أوروبا وتتبع الباحثون آثاره إلى أمريكا حيث ظهر هنالك فى أواسط العصر الجليدى . وتنسل عنه فى تلك الاقاليم العموث الجفرسونى نسبة إلى جفرسون Jefferson

١٥ ــ الالفوس بريميجينوس Elephas primigenuis أو العموث الصوفى أو الوبرى وقد سمى بالاسم الاصطلاحى الذى ذكرناه بعد بلومنباخ الباحث المعروف وقد استكشفت آثاره أولا فى شمال المانيا وفى انجلترا . وقطع مهاجراً شمال آسيا حيث وصل امريكا فى أواخر العصر الجليدى

١٦ ـ الالفوس Elephas ــ أى الفيلة الحقيقية وقد سميت بهذا الاسم بعد ليفيوس العالم المعروف . ويرجح أن تكون قد نشأت فى شمال آسيا . وعرف فى الهند فى أوائل عصر الانسان . وعنه تنسل النوع الذى يقطن الآن فى الهند وبورما وسيلان